أبو حامد الغزالي

دراسة جديدة لحياته وافكاره

بقلم اسماعيل المهدوي

- ١ -

- الحجر يمكن ان ينقلب ذهبا . واذا تركت في البيت كتابا ، فمن الممكن أن يكون قد اصبح حصانا . فالله تعالى قادر على كل شيء .
- حمعسق .. ايلاوش ٥٦٥ ﻫ .. كد منع وهجح .. مهمت مههه ع مى
تكتب مثل هذه الحروف على خرقتين تحت قدمي الحامل ، فيسرع الولد الى الخروج في الحال .
- الحاجة الى المطعم والملبس والمسكن اساس الضلال والفساد . والزواج خطيئة عقوبتها الاولاد ، والادخار انكار لقدرة الله .
- الانسان يبني للخراب ويلد للفناء . والعقلاء هم الذين يتمنون العدم .
- استمرار الحياة الدنيا قائم على المغفلين .
- اذا اردت ان تشاهد جلال الربوبية ، فاجلس في مكان مظلم في خلوة ، ولف رأسك في ثيابك ليكون الظلام كاملا .
- بعض آيات القرآن لا يجوز تفسيرها ، لانها نزلت للخاصة لا للعامة ، اذ لا يمكن مخاطبة العقلاء بلغة الصبيان ، ولا يمكن مقارنة الملائكة بالحدادين .
- يجب على معظم الخلق الكف عن التفكير في اصول الدين . فاذا عجزوا عن ذلك ، فارتكاب المعصية اسلم لهم ، لان المعصية تطرد الافكار من رؤوسهم .
- عليك بالعزلة . فان لم تستطع فملازمة الصمت . فان لم تستطع فالنوم . وتجنب الضحك لانه يذهب بك الى قعر جهنم .
- الشيطان هو الذي يدفع الانسان الى طلب العلم .
- الاسلام بالسيف والسنان ، انجح من البرهان واللسان .
- الله هو الذي يريد المعاصي . ولو لم يكن يريدها ، فلماذا تمتلىء الدنيا بالمعاصي ؟
- السكوت أمام ابليس طول العمر شيء لا ضرر فيه . لكن الهفوة الواحدة في الرأي تؤدي الى الهلاك .

والآن ...

ماذا تقول ايها القارىء الفاضل ـ ادامك الله وابقاك ـ فيمن ينشر على الناس هذه الآراء ؟

وماذا تقول فيمن يزعم ان هذه الآراء هي الدين الصحيح ؟

وماذا تقول فيمن يزعم في الثلث الاخير من القرن العشرين ، ان صاحب هذه الآراء هو حجة الاسلام وامام الائمة الخالد ، وهو وحده ممثل التراث الاسلامي الذي يجب على عموم الخلق احياؤه والدفاع عنه والاقتناع به ؟

رحم الله ابا حامد الغزالي !

فقد كان الرجل والحق يقال صريحا الى اقصى حدود الصراحة ، واضحا بدرجة يفتقدها كثيرون ممن يتمسحون بالدين والتراث . ولقد حاول الغزالي ان يخدم الاسلام على قدر ما صورت له ظنونه منذ تسعمائة عام ، وعلى قدر ما طلب منه سلاطين السلاجقة في ذلك الوقت. وكان الغزالي مرآة للمجتمع المتدهور الذي عاش فيه . مرآة لهزيمة المسلمين امام الغزو الصليبي ، وخضوعهم لطغيان السلاجقة الاتراك . وكان يؤمن بسلطان ذلك الزمان ، ويرى الدفاع عنه دفاعا عن ولي الامر الذي يحمل راية الدين . ومعنى ذلك أن هؤلاء الذين يصنعون منه اليوم حصانا اجوف يحتشدون خلفه ، يعجزون حتى ان يكونوا مثله مرآة لعصرهم وللمجتمع الذي يعيشون فيه .

وفي الصفحات التالية ، نقدم افكار الغزالي من نصوص كلماته . فالتهويم على سطح الافكار ينتهي عادة الى ضياع الحقيقة . لكن الكلمة المكتوبة ، هي الجسم المادي للفكرة المجردة . وحين يطرح هذا الجسم امام عيون المثقفين ، لا يبقى بعد ذلك مجال للالتواء والاثارة . بهذا تخرج المناقشة من نطاق الخلاف المجرد حول الرجعية والتقدمية او قضية احياء التراث ، وتصبح المسألة بصراحة كما يلي :

هل تستطيع هذه الجثة ـ هذه الكلمات الصفراء ـ ان تقف على قدميها في عصر العلم والاشتراكية ، ام ان الافضل أن تحفظ في متاحف الفكر ، بكل الاحترام اللائق بالآثار التاريخية التي يتخطاها الزمن ؟

لكن السؤال السابق يثير عدة نقاط تحتاج الى توضيح .

ان ارتباط الحاضر بالماضي ، لا يقل عن ارتباط المستقبل بالحاضر. ولا يمكن أن نتصور ان التاريخ يبدأ اليوم او انه سيبدأ غدا . فالتاريخ بدأ منذ قرون . في الامس البعيد . والحركة التاريخية المستمرة تمارس على المدى الطويل ، عملية انتقاء تستبقي العناصر الصالحة وتستبعد العناصر غير الصالحة . والافكار التي يتوارثها الابناء عن الاجداد ، تقبل نوعين من التقييم .

الاول ، تقييم للدور الاجتماعي الذي لعبته في حركة التاريخ في عصرها السابق .

والثاني ، تقييم للدور الاجتماعي الذي يمكن ان تلعبه في حركة احياء التراث في عصرنا الحاضر .

فالفكرة التقدمية هي التي تدفع تقدم التاريخ او تساعد الانسان على التطور والشعور بانسانيته واستكمال سيطرته على نفسه وعلى المجتمع وعلى الطبيعة . اما الفكرة الرجعية فتلعب على عكس ذلك دورا ضد التقدم ، وتلوي عنق الانسان لترجع به القهقرى ، وتدفعه الى الانتكاس على المستوى الحضاري الذي تحقق له .

والفكرة قد تكون تقدمية في مرحلة سابقة من مراحل التاريخ ، ثم تصبح رجعية في مرحلة اخرى . وقد يحدث العكس . ورغم هذا التقييم النسبي ، فهناك افكار ذات قيمة تقدمية مطلقة ، بغض النظر عما يرتبط بها احيانا من تفاصيل ساذجة او متخلفة . حتى الاساطير البدائية قبل ظهور الاديان : تحتوي على كثير من الافكار الحية ـ افكار الحب والاخوة والعدالة وقدرة الارادة البشرية .

ان اسطورة بروميثيوس مثلا ، سوف تظل على الدوام صورة حية جميلة لثورة الانسان ضد العجز المكتوب عليه ، وكفاحه من اجل المعرفة،

ورغبته في اكتشاف سر الكمال . وعلى عكس ذلك ، فاسطورة سيزيف تلعب دور الاداة الفنية في الفلسفة الرجعية لتبرير الخضوع والرضا بالمكتوب .

وفي فجر الاسلام ، كان أبو ذر الغفاري يدعو الى توزيع الثروة ، ويصب نار سخطه على اصحاب الاموال «الذين يكنزون الذهب والفضة» ويدعو الفقراء الى أن يشهروا السيوف ضد مغتصبي حقوقهم . فهذه اذن دعوة لا تنطفىء حرارتها ، طالما انقسم العالم الى أغنياء وفقراء ، وطالما استمر كفاح الانسان من اجل مجتمع المساواة . وهي بعبارة اخرى، دعوة نقدمية انسانية بكل معاني الكلمة .

وفي القرن الثاني من الهجرة (قبل الغزالي بثلاثة قرون) ، كان شيوخ الاسلام من المعتزلة يخوضون معارك الجدال في المساجد والمجالس دفاعا عن سلطان العقل ووجوب العدل والصلاح وحرية الارادة للفرد . وكانوا بذلك يقدمون ـ الى التاريخ ـ الجانب التقدمي والمشرق في الفكر الاسلامي . الفلسفة التي تزداد رسوخا مع تقدم العلم والاشتراكية، وتحفظ للاسلام جوهره التقدمي الصحيح ، وتسجل له بالفخر ارقى نظريات الفكر الديني في العالم كله .

بهذا المنهج يمكن أن نحكم على قيمة افكار الغزالي ، سواء في العصر الذي عاش فيه ، او في عصر العلم والاشتراكية ـ العصر الذي نحتاج فيه الى احياء كل فكرة تقدمية كبيرة في تراث اجدادنا .

وقد تساءل احد الكتاب في تعابط طريف : هل يمكن ان نحكم على الغزالي بانه رجعي لانه لم يكن يركب سيارة كاديلاك ؟!

لكن التراث الاسلامي حافل بابطال التقدم الذين ركبوا الابل ، وربما لم يركبوا شيئا .

ومع ذلك ، فالغريب ان هؤلاء الذين يقيسون التقدم بطول السيارة او ارتفاع ثمنها ، هم أشد الناس دفاعا عن الغزالي داعية التصوف وحب الفقر والرغبة في « الذل والانكسار والعبودية » . ولو سألنا الغزالي نفسه : هل يختار التقدم أم الرجعية ؟ ـ لقال الرجل بصراحته المعروفة، انه يختار الرجعية . كل ما في الامر انه كان يطلق على التقدم اسم « العلوم المحدثة » أو « البدع » ، ويطلق على الرجعية اسم « الرجوع الى مذهب اهل السلف » . ولا يكاد كتاب من كتبه يخلو من تقرير لهذا الرأي .

وبرغم كل ما لقيه الغزالي طوال القرون السابقة من التقديس العجيب من السلاطين والامراء واعيان المجتمع ومن يخدمونهم من رجال الدعاية والتبشير ، فقد انبرى له عديد من رجال الدين المخلصين ، حتى في العصور القديمة .

من هؤلاء مثلا الفقيه المعروف ابن تيميه (٦٦١ ـ ٧٢٨ هجرية) الذي كتب فصولا عديدة في « تسفيه » آراء الغزالي . اما ابن القيم (٦٩١ ـ ٧٥١ ـ هجرية) ، فقد هاجمه هجوما عنيفا ، وكان يقول عن بعض افكاره :

« هذا الكلام فوق الجنون بدرجات » . (١) ✱

وقال عنه ايضا :

« انا اتعجب من ابي حامد اكثر من تعجبي من هؤلاء الجهلة بالشريعة » .

ولاحظ بعض مفكري الاسلام ان في كتب الغزالي مئات الاحاديث غير الصحيحة المنسوبة الى النبي صلى الله عليه وسلم . (٢)

ومنذ ثلاثة واربعين عاما ، وقبل ان يتم الكشف عن عدد من الكتب المتهافتة التي تركها الغزالي ، كتب الدكتور زكي مبارك في رسالة حصل بها على درجة الدكتوراة من الجامعة :

« الواقع ان الغزالي كان فتنة من فتن العصور القديمة . وقد نسي العلماء في الدفاع عنه ان هناك عقولا يجب ان تحكم ، وانه لن يخلو العالم من اصحاب العقول ، ولو كره الجامدون ! » (٣) .

ولنبدأ القصة من أولها :

✱ الحواشي والمراجع في نهاية المقال .

١ ـ الشك .. والخوف :

في عام ٤٨٨ من الهجرة ، كان الغزالي قد بلغ الثامنة والثلاثين من عمره ، وقضى اربع سنوات في التدريس في مدرسة نظام الملك في بغداد . وكان قد أصدر اشهر كتبه الفكرية ، وهي : «مقاصد الفلاسفة»، و « فضائح الباطنية » ، و « تهافت الفلاسفة » ، وفجأة ترك زوجته واولاده وخرج من بغداد زاهدا متصوفا ، يضرب في الحجاز والشام ومصر ، يعيش في الخلوات والمقابر والسراديب المهجورة . ثم فجأة ايضا ، وبعد احد عشر عاما ، عاد الى التدريس في المدرسة «النظامية» في نيسابور عاصمة أقليم خراسان . وبعد فترة ، هجر التدريس مرة اخرى ليعيش في احدى تكايا الصوفية في بلدة طوس ، في اقليم خراسان حيث ولد . فالغزالي فارسي . كان يكتب بالفارسية الى جانب العربية . وربما كان هذا سببا من اسباب نزعته الروحانية المنحرفة . فأشهر المتصوفة الاوائل ، كانوا من الفرس المتأثرين بالمجوسية ، مثل معروف الكرخي ، وابي يزيد البسطامي ، والحلاج ، وجلال الدين الرومي ، وعمر الخيام .

لكن لماذا ترك الغزالي التدريس عام ٤٨٨ ، ولماذا عاد اليه عام ٤٩٩؟

هذا سؤال طرحه الناس على الغزالي نفسه ـ كما ذكر صراحة في مقدمة كتابه « المنقذ من الضلال » ـ فاخترع له اجابة لا يقبلها سوى هؤلاء الذين يقدسون كلماته .

في هذه النقطة بالذات ، لم يكن الغزالي صريحا . فقد زعم انه اصيب بنوبة شك في معتقداته استمرت ستة أشهر حتى الجمت لسانه ، فلم يملك الا ان يقطع علاقته بالدنيا حفاظا على دينه ، وان يسلك طريق التصوف في الخلوات البعيدة .

لكن لماذا لم يبحث عن الخلوة في زوايا العراق او خراسان كما فعل بعد ذلك ؟

ولماذا ترك الخلوة وعاد الى طوس في ذلك الوقت بالذات بعد احد عشر عاما ؟

ثم لماذا ترك التدريس بعد ان عاد اليه ؟

الجواب ببساطة ، هو ان الغزالي خرج من بغداد فرارا من ازمة حكم لا من ازمة شك .

واليكم القصة (٤) .

كان الغزالي يدين بالولاء للوزير السلجوقي نظام الملك الذي عينه في التدريس واغدق عليه الرعاية . وكان نظام الملك اقوى وزراء السلاجقة وابعدهم نظرا . وهو الذي انشأ المدارس النظامية التي سميت باسمه ، لتكون مراكز دعاية لمذهب أهل السنة ، تستخدمها الدولة العباسية الرابعة في العراق وخراسان ضد نشاط « الازهر » الذي انشأه الفاطميون في مصر .

وكان الوزير نظام الملك قد نجح في فرض سيطرته على معظم اقاليم الدولة بعد وفاة السلطان الب ارسلان . ومعنى ذلك ان نظام الملك لم يكن وزيرا الا بالاسم ، لكنه كان في الحقيقة يمارس سلطة اقوى من سلطة السلطان الجديد « ملكشاه » في بغداد ، واقوى من سلطة الخليفة العباسي « المقتدي بالله » الذي كان مجرد شعار ديني للدولة يحتفظ به سلاطين بغداد من باب الشكليات . ويسمى ذلك العصر ، بالعصر العباسي . وسيطر فيه السلاجقة على الحكم . وهم الذين يقول عنهم المستشرق الكبير بارتولد انهم ظلوا مائة عام عاجزين عن تعلم القراءة والكتابة ! (٤م) وفي ذلك العصر ايضا ، استولى الصليبيون على بيت المقدس ، وتفككت الدولة تماما ، ثم شهدت الخلافة العباسية الرابعة المتدهورة ، آخر ايامها عام ٥٧٥ .

ويبدو ان السلطان ملكشاه كان قد نجح في سنواته الاخيرة في اقامة بعض العلاقات السرية بحركة القرامطة التي حققت في ذلك الوقت انتصارات ملحوظة واستطاعت أن تستولي على مدينة البصرة . المهم ان احد انصار القرامطة نجح في قتل نظام الملك عام ٤٨٥ ، لحساب ملكشاه وزوجته تركان خاتون ، على ما يرجح المؤرخون . وبذلك فقد الغزالي حاميه وولي نعمته .

وبعد فترة ، مات ملكشاه أيضا ، فنشب صراع دموي مرير بين « محمود بن ملكشاه » واخيه غير الشقيق « بركياروق » . واستطاع انصار بركياروق ان ينادوا به سلطانا وان يهزموا جيوش اخيه . لكنه لم يكد يقمع الفتن الخطيرة التي ثارت ضده ، حتى فوجيء بجيوش عمه السفاح السلجوقي « توتوش ابن الب ارسلان » تزحف على بغداد . وانتصر توتوش واعلن نفسه سلطانا في بغداد عام ٤٨٧ . وهرب بركياروق الى اصفهان .

وفي ذلك العام ، كان الخليفة العباسي المقتدى بالله قد مات ، وتولى الخلافة بعده ابنه « المستظهر بالله » . وكان شابا في السادسة عشرة من عمره . ويبدو انه لم يكن قد اقتنع بعد بأن الخليفة هو مجرد رمز شكلي ، وان سلطان بغداد هو صاحب السلطة ، فتورط في الاشتراك في الصراع بين طالبي السلطنة ، وكان موقفه مع السفاح توتوش ضد بركياروق المعروف باتصالاته بالجمهور وعلاقاته بالقرامطة .

وكان الغزالي اذ ذاك مجرد كاتب نشيط يطلب النفوذ والشهرة . قال في « المنقذ من الضلال » :

« تفكرت في نيتي في التدريس ، فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت » . (٥)

وقال :

« وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه » . (ص ٤٢) .

ولما كان من شروط كسب الجاه ، العثور على صاحب سلطة يحل محل نظام الملك ولي نعمته السابق ، فقد وجد الغزالي ضالته في الخليفة الشاب الصغير « المستظهر بالله » . وسرعان ما رمى طالب الجاه حباله ، فاتصل بالخليفة ، وفي فترة قصيرة ، اصدر الغزالي كتاب « فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية » ، واهداه الى الخليفة المستظهر قائلا :

« اما بعد ، فاني لم ازل مدة المقام بمدينة السلام (بغداد) متشوقا الى ان أخدم المواقف المقدسة النبوية الامامية المستظهرية ، ضاعف الله جلالها ومد على طبقات الخلق ظلالها ، بتصنيف كتاب في علم الدين اقضي به شكر النعمة واقيم به رسم الخدمة واجتني بما اتعاطاه من الكلفة ثمار القبول والزلفة ... حتى خرجت الاوامر الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية بالاشارة الى الخادم في تصنيف كتاب في الرد على الباطنية .. فرأيت الامتثال حتما والمسارعة الى الارتسام حزما » (٦) .

لكن الغزالي كان سيء الحظ هذه المرة . فقد نجح بركياروق في تنظيم صفوفه ، واستولى على بغداد ، وتعقب « توتوش » الى « الري »، وهناك وقعت المعركة الحاسمة التي قتل فيها توتوش عام ٤٨٨ . وعاد بركياروق الى بغداد يصفي حسابه مع اعدائه ، وهم انصار توتوش وحليفه الخليفة المستظهر بالله .

ووجد الغزالي نفسه في موقف حرج ، خصوصا ان بركياروق لم يكن من النوع الذي يستطيع الغزالي ان يتعلق به . فالغزالي يريد سلطانا يلف حول رأسه عمامة كبيرة ويجعل مهمة الدولة ذبح الزنادقة ومثيري الاسئلة الدينية والبدع ، ويغدق العطاء على رجال الدين كما كان يفعل نظام الملك . (٧)

في هذه الظروف السياسية ، اصيب بنوبة الشك التي تحدث عنها ، او بالاحرى نوبة الخوف . وكان من اسباب تردده ان « فخر الملك » ابن ولي نعمته السابق نظام الملك ، تولى الوزارة للسلطان بركياروق ، فداعب الامل قلب الغزالي في ان يضمن له فخر الملك رضاء السلطان . لكن من سوء حظه ان العلاقات ساءت بين الاثنين ، وانتقل فخر الملك بعد ذلك الى خراسان .

وهكذا وجد ابو حامد نفسه وحيدا معرضا لانتقام السلطان ، او محروما من رضائه على الاقل . فهبطت عليه وساوس الشك ، واكتشف ان الحياة الدنيا ليست دار سعادة ، لان السعادة في الآخرة ، وادرك ان العلوم التي ينشرها على الناس علوم زائفة ، وان واجب المسلم الانقطاع عن العالم كله لمشاهدة جلال الربوبية .

ومع ذلك ، فالشيء المثير للملاحظة ـ كما سنرى ـ انه بمجرد وفاة بركياروق ، عاد الغزالي الى المدرسة النظامية في نيسابور .

وقبل ان نتناول قصة العودة ، يجب ان نشير الى ان الكلمات المذكورة في « المنقذ » ، تعتبر نوعا من النقد الذاتي يسجله الغزالي على نفسه ، ليدين به مؤلفات هذه المرحلة وهي « مقاصد الفلاسفة » ، و « فضائح الباطنية » ، و « تهافت الفلاسفة » ، طالما انه يصف العلوم التي كان ينشرها آذ ذاك ، بانها « غير خالصة لوجه الله تعالى » .

لكن مؤلفات الغزالي الاخرى ، تؤكد ان هذا النقد الذاتي لم يكن جادا ، وانه كان جزءا من القصة التي ذكرها عن فترة الشك .

ثم اشارة اخرى ، وهي ان الغزالي قضى في منفاه الاختياري احد عشر عاما ، صنف فيها مئات الصفحات ، تضمنت كثيرا من تجاربه الشخصية ، لكنه لم يذكر كلمة واحدة ـ بالتصريح او التلميح ـ عن تعرضه لازمة الشك التي تفنن في وصفها في « المنقذ من الضلال » ، عندما سأله تلاميذه كما اعلن في مقدمته : لماذا تركت التدريس ثم لماذا عدت اليه ؟

وقد سمع الغزالي بلا شك همسات الهامسين عن الاسباب السياسية لرحيله . والدليل على ذلك انه اشار الى هذه الهمسات في « المنقذ » اشارة لا تخلو من دهاء ، لكنها بالغة الخطورة في قيمتها التاريخية ، فقال :

« وظن من بعد عن العراق ، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولادة » . (ص ٣٠) .

وفي ربيع الثاني عام ٤٩٨ مات بركياروق ، وتولى السلطنة اخ ثالث اسمه « محمد بن ملكشاه » . ولم يلبث الغزالي ان شعر فجأة بالشوق الى اولاده الذين تركهم سنوات طويلة . فعاد يمارس الخلوة والتصوف في طوس مسقط رأسه ، على مقربة من ابن ولي نعمته « فخر الملك » في نيسابور . ولم تكد تمر شهور معدودة ، حتى كان الغزالي قد وافق « ملزما ! » على التدريس في مدرسة نيسابور ، قال عن ذلك في كتاب « المنقذ » :

« وامر (السلطان) امر الزام بالنهوض الى نيسابور ، وبلغ الالزام حدا كان ينتهي لو اصررت على الخلاف الى حد الوحشة . » (ص ٤٠).

وخوفا من « وحشة » السلطان ، عاد الغزالي الى التدريس عام ٤٩٩ . ومن الصعب ان نحدد بدقة ، الشهر الذي ترك فيه التدريس مرة اخرى . لكن الشيء المعروف ، انه اصدر عام ٥٠٠ كتاب « المنقذ » ليفسر به عودته ثم توقفه . ورغم انه فسر العودة بصدور امر السلطان ، فلم يذكر اي تفسير لانسحابه الجديد الى طوس . لكن التاريخ يقدم لنا واقعة مؤكدة ، هي ان فخر الملك الذي دعا الغزالي الى العودة ، قتل في نيسابور في نفس العام ـ عام ٥٠٠ .

وكان الغزالي قد قام بمحاولة بعد ذلك (على الارجح) ، لكسب الحظوة لدى السلطان الجديد « محمد بن ملكشاه » . فأصدر كتابا بالفارسية (ترجمه احد تلاميذه الى العربية) ، بعنوان « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » ، واهداه الى السلطان المذكور . لكن يبدو انه لم يستطع ان يبلغ بالكتاب الحظوة المطلوبة ، فآثر ان يقضي بقية حياته في سراديب التصوف في طوس .

وكان الغزو الصليبي ضد الامة الاسلامية قد بدأ عام ٤٩٠ هجرية ، بينما الغزالي مشغول بالغيبوبة في المنارة المغلقة بدمشق وفي كهف الصخرة في بيت المقدس ، ولف رأسه بالثياب « لمشاهدة جلال الربوبية » . وفي عام ٤٩٣ استولى الصليبيون على بيت المقدس . ولم يفكر الغزالي وهو يتحدث عن احياء الدين ان يدعو المسلمين للجهاد دفاعا عن وطنهم ودينهم ، بينما كان رجال الدين المسيحي في أوروبا غارقين الى آذانهم في اثارة الرعاع والتلويح بالصلبان وترديد الاماني عن سحق الاسلام والاستيلاء على ارض المسلمين . وفي البلاد الاسلامية التي احتلوها ، ذبحوا عشرات الآلاف من الابرياء في مجازر دموية لا ينساها التاريخ . ورغم ذلك كله ، لم تحرك انهار الدم شيئا من انفعالات

ـ التتمة على الصفحة ٥٠ ـ

ابــو حامد الغزالي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١١ ـ

« حجة الاسلام » ، ولم يسمع في خلواته ومشاهداته ما يدفعه الى ان يقول كلمة واحدة عن هذه المحنة الكبرى ، رغم انه سكب قناني الحبر على مئات الصفحات ضد المعتزلة والمفكرين الاحرار ، وضد الجماهير التي تؤمن بحقها في الدين والدنيا معا ، وترفض أن تجعل من الحياة والموت بديلين : تتنازل للملوك والامراء عن اولهما ، وتقنع لنفسها بحفرة القبور.

٢ ـ الدين والدنيا :

لا يحتاج الانسان في القرن العشرين الى ان يرهق نفسه ليقرر حقيقة واضحة ، هي ان قوة الدين عند المؤمن لا تنفصل عن قوة الدنيا . كذلك لا يحتاج الانسان الى ان يرهق نفسه ليثبت ان الاسلام ـ الدين الوحيد الذي اقام اقوى دولة في العصور الوسطى ـ يقترب في جوهره من هذا المفهوم الصحيح .

لكن الغزالي اختار طريقا آخر لاحياء الدين ، طريق الهزيمة والاستسلام . الهزيمة امام الغزو الصليبي ، والاستسلام لفساد المجتمع وطغيان الحكام السلاجقة وانكسار الجماهير امام الفقر والعجز . فهو القائل :

« اذا عجزنا عن الغنيمة ، رضينا بالسلامة في الهزيمة . » (٨)

ومن الابواب العجيبة في المجموعة التي اصدرها الغزالي بعنوان « احياء علوم الدين » ، باب كبير يسمى « كتاب ذم الدنيا » ، يحشد فيه الغزالي غرائب القصص والاحاديث المصنوعة التي تستهدف اثارة سخط القارىء على وجوده ، بحيث لو اقتنع بها لاغلق الكتاب وشنق نفسه ! والخطير في ذلك انه يسوق افكاره المسمومة ، منسوبة الى الدين .

يقول في فاتحة كتابه :

« اكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم الى الآخرة . بل هذا مقصود الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم يبعثوا الا لذلك » . (٩)

فما اعجب حجة الاسلام هذا، يزعم انه يدافع عن الاديان والانبياء ، فلا يقول انهم جاءوا لصلاح الحياة وخير البشر ، بل يؤكد أن هدفهم الوحيد هو صرف الناس عن حياتهم واعدادهم للموت !.

يقول ايضا :

« ويروي ان الله لما أهبط آدم الى الارض قال له : ابن للخراب ، ولد للفناء » . (١٠)

ثم يحكي قصة مثيرة للتقزز ، يزعم فيها ان سبب هبوط آدم الى الدنيا انه بعد ان أكل من الشجرة المحرمة ، حاول ان يجد في الجنة مكانا يقضي فيه حاجته في ركن او تحت شجرة ، فقال له الله : ان الجنة نظيفة لا يسمح بقضاء الحاجة فيها ، فاهبط الى الدنيا لتقضي حاجتك هناك ! (ص ١٧٦ ـ ١٧٧) .

ويقدم بعد ذلك محاولة لتفسير تاريخ تطور البشرية ، يرى فيها ان تاريخ الانسان هو تاريخ الفساد ، لان دوافع حياة الانسان هي « حاجة المطعم والملبس والمسكن » ، وكلها « اساس الضلال » . (ص ٢٠٠) .

فهل يطالب جميع البشر بالزهد والتصوف ؟

لا . فهو في هذه النقطة بالذات يتمتع بادراك عملي لماح . وفي رايه انه لولا المغفلون لانقطع البشر جميعا عن الدنيا ، ولانقطعت الارزاق التي يعيش عليها الزهاد الحقيقيون ، وهم أولياء الله من امثاله . واذن فلا بد ان يبقى في الدنيا المغفلون المفتونون بها ، حتى يستطيع هو ان يمارس الزهد والتصوف .

يقول في بيان غفلة البشر الذين يتعلقون بالحياة :

« باعثهم عليه حرص جمع المال . فيتعبون طول الليل والنهار في الاسفار . ونصيبهم منها جمع المال ، الذي يأكله لا محالة غيرهم : اما قاطع طريق ، واما سلطان ظالم . ولكن جعل الله تعالى في غفلتهم وجهلهم نظاما للبلاد ومصلحة للعباد . بل جميع امور الدنيا انتظمت بالغفلة وخسة الهمة . ولو عقل الناس وارتفعت همتهم لزهدوا في الدنيا . ولو فعلوا ذلك لبطلت المعايش . ولو بطلت لهلكوا ولهلك الزهاد ايضا » ! (ص ١٩٩) .

رحم الله الغزالي رحمة واسعة ! فقد كان الرجل صريحا .

لنذكر اذن امثلة اخرى لمئات الحكم والاحاديث التي يحشدها في كتبه .

« سيد الاعمال الجوع وذل النفس ولباس الصوف » . (الاحياء ، مجلد ٣ ص ٧٥) .

« كان فتح الموصلي اذا اشتد مرضه وجوعه يقول : الهي ابتلتني بالمرض والجوع ، فكيف أؤدي شكر ما انعمت علي ؟ » (ص ٧٦) .

« قال ابو سليمان : الجوع عند الله في خزانة ، لا يعطيه الا لمن احبه » . (ص ٧٧) .

وفي باب بعنوان « في فضل الفقراء » في كتابه « مكاشفة القلوب المقرب الى حضرة علام الغيوب » ، يقول :

« مر المسيح عليه السلام على رجل نائم ، فأيقظه وقال : يا نائم ، قم اذكر الله تعالى . فقال : ما تريد مني ؟ انني تركت الدنيا لاهلها : فقال له : فنم اذن يا حبيبي ! » (ص ٨٠) .

وبهذه المناسبة يكرر عديد من المستشرقين ذوي الميول الصليبية المعادية للاسلام ، ان الغزالي في فترة تصوفه وخصوصا اثناء اقامته في الشام ، تأثر تأثرا كبيرا بالمسيحية . بل يقول الدكتور زويمر ان سبب هداية الغزالي هو قراءته للانجيل . (١١) اما البارون كارادي فو المعروف بعدائه للروح الاسلامية الصحيحة ، فقد كتب عن الغزالي في الكتاب الذي خصصه لدراسته :

« اني اعتقد ان هذا الشخص (الغزالي) سوف يبدو اقل بعدا عنا واقرب الى التآلف معنا » . (١٢)

يقول الغزالي في « مكاشفة القلوب » :

« قال (الله) لموسى : يا موسى ، اذا رأيت الفقر مقبلا ، فقل مرحبا بشعار الصالحين » . (١٣)

« يأتي الفقير الى الله يوم القيامة ، فيعتذر الله تعالى اليه كما يعتذر الرجل للرجل ، ويقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوانك علي ، ولكن لما اعددت لك من الكرامة والفضيلة » . (ص ٨١).

« احب العباد الى الله تعالى ، الفقير القانع برزقه » . (ص ٨٣).

« يقول الله تعالى يوم القيامة : اين صفوتي من خلقي ؟ فيقول الملائكة : ومن هم يا ربنا ؟ فيقول : فقراء المسلمين القانعون بعطائي الراضون بقدري . ادخلوهم الجنة » . (ص ٨٣) .

ورغم أن القرآن يقول « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ، فالغزالي يقول :

« الاولاد عقوبة شهوة الحلال » . (١٤)

ويقول :

« اذا طلب الرجل الحديث ، او سافر في طلب المعاش ، او تزوج، فقد ركن الى الدنيا » !

لهذا السبب هجر الغزالي أولاده وزوجته احد عشر عاما ، بحثا عن لذة الذوق والمشاهدة في الصحارى والسراديب .

بل ان طلب الرزق يعد في رأيه انكارا لقدرة الله . يقول في « منهاج العابدين » :

« فان قيل : هل يلزم العبد طلب الرزق ؟ فاعلم ان الرزق المضمون الذي هو الغذاء والقوام ، لا يمكننا طلبه . اذ هو شيء من فعل الله

سبحانه للعبد ، كالحياة والموت ، لا يقدر العبد على تحصيله ولا على دفعه . فان قيل : لكن لهذا الرزق المضمون اسباب ، فهل يلزمنا طلب الاسباب ؟ قيل له : لا يلزمك ، ولا حاجة للعبد اليه ، اذ الله سبحانه يفعل بسبب وبغير سبب . ثم ان الله تعالى ضمنه لك ضمانا مطلقا من غير شرط الطلب والكسب . قال تعالى : « وما من دابة في الارض الا على الله رزقها » . ثم كيف يصح ان يأمر العبد بطلب ما لا يعرف مكانه ؟ فالواحد منا لا يعرف سبب الرزق من اين يحصل عليه . فلا يصح تكليفه » .)١٥(

والله تعالى ـ في رأيه ـ لا يحدد الرزق للانسان فقط ، بل يحدده ايضا للحيوانات والحشرات جميعا . ولهذا هاجم المعتزلة لانهم قالوا : « انه لا رزق لله تعالى على البهائم . » ! (١٦)

واذا كان يرى ان طلب الرزق استكبار على عطاء الله ، فهو يرى ايضا ان الادخار اهدار للتوكل وتشكيك في ضمان الله . والا فلماذا تدخر ما دام الله هو الذي يضمن لك كل لحظة من لحظات حياتك ؟ وكيف يحق للمؤمن ان يدخر لمستقبله في الدنيا ، وواجبه ان يتمنى الرحيل منها في اقرب وقت ليكسب سعادة الآخرة ؟

يقول الغزالي :

« ارفع الدرجات درجة من لا يلتفت الى غده ويقصر همته على يومه ، ويومه على ساعته ، وساعته على نفسه ، ويقدر نفسه في كل لحظة مرتحلا من الدنيا او مستعدا للارتحال » . (١٧)

ويقول ايضا :

« الذي يدخر لسنة ، ليس من المتوكلين اصلا .. والذي يدخر لاربعين يوما فما دونها ، يحرم من المقام المحمود الموعود في الآخرة» .(١٨)

ويقول فيما يسميه « بداية الهداية » :

« فاذا اردت النوم ، فابسط فراشك ، ونم على يمينك كما يضجع الميت في لحده ، ولعل الله تعالى يقبض روحك في ليلتك فكن مستعدا للقائه ، وتكون وصيتك مكتوبة تحت رأسك » . (ص ٤١) .

ويقول :

« العزلة اولى ، فعليك بها ، ففيها النجاة والسلامة . فان كانت الوساوس تجاذبك ، فعليك بالنوم . فاذا عجزنا عن الغنيمة ، رضينا بالسلامة في الهزيمة . فالنوم اخو الموت ، وهو تعطيل للحياة والتحاق بالجمادات » ! (ص ٣٦) .

ويجب على المسلم ايضا « ملازمة الصمت » وتجنب « المزاح والسخرية في الجد والهزل » . (ص ٧٠) . حتى الاستشهاد في سبيل الله ، لا يشفع لمن يرتكب خطيئة الضحك البريء . يقول اعتمادا على احد الاحاديث التي اخترعها :

« في الخبر ان الرجل يتكلم بالكلمة ليضحك بها اصحابه فيهوى بها في قعر جهنم سبعين خريفا . وروى أنه قتل شهيد في المعركة على عهد رسول الله ، فقال قائل : هنيئا له بالجنة . فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه » . (ص ٦٤) .

وفي هذا الكتاب العجيب الذي اطلق عليه شارحه اسم « مراقي العبودية » ، ينصح قارئه بأن يسلك دائما مسلك «العبد الذليل المذنب» (ص ١٠) . ويقسم له يومه الى عدة فترات ابتداء من الفجر، يشغلها بالاذكار والاستغفار والتسبيح ، يستفتحها كل يوم عند الاستيقاظ بهذا الدعاء ليثبت انه « مسكين عاجز » ؟ ـ « اللهم اني اصبحت لا استطيع دفع ما اكره ، ولا املك نفع ما ارجو » (ص ٢٨) .

هذه نصيحة الغزالي للقارىء « المسكين الذليل المذنب » . اما الملوك والامراء والاغنياء ، فلم يخصص لهم في كتبه الكثيرة فصلا واحدا يفضح انحرافهم . بل على العكس ، كتب في « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » ينصح محمد بن ملكشاه وامراء بيته ، بأن يوزع يومه على اربع فترات من نوع مختلف تماما عن فترات العبودية التي مر ذكرها . بل انه في هذا الكتاب لم يعترض على اشتغال السلطان بشرب الخمر او الصيد ، الا اذا حدث ذلك « دائما » !

يقول :

« ولا ينبغي للسلطان ان يشتغل ـ دائما ـ بلعب الشطرنج والنرد وشرب الخمر والصيد ، لان ذلك يمنعه ويشغله عن امور الرعية . فان لكل عمل وقتا .. فالملوك القدماء قسموا النهار اربعة اقسام . قسم لطاعة الله وعبادته ، وقسم للنظر في الرعية ، وقسم للاكل والشرب والتزود من الدنيا واخذ الحظوظ من الفرح والسرور ، وقسم للصيد ولعب الشطرنج وما اشبه ذلك » (١٩) .

ورغم ان الغزالي اصدر هذا الكتاب كما ذكرنا في اخر ايام حياته، فاسلوبه فيه يختلف كل الاختلاف عن اسلوب الكتب التي كان يصدرها للعامة الفقراء . ويبدو ان من اسباب كتابته بالفارسية انه لم يكن يريد ان يقرأه الجمهور ، لولا ان ترجمه احد تلاميذه . وفي هذا الكتاب قال رأيه صراحة في اهل عصره .

قال يخاطب السلطان ، ويكاد يدعوه الى الطغيان باسم ارادة الله:

« ان زماننا هذا زمان ذوي الوقاحة والسفهاء واهل القسوة والشحناء ... وفي الامثال : ظلم السلطان مائة عام ولا ظلم الرعية بعضهم لبعض سنة واحدة . واذا جارت الرعية ، سلط الله عليها سلطانا جائرا وملكا قاهرا ... قال الحجاج بن يوسف الثقفي : ايها الناس ان الله سلطني عليكم باعمالكم . فان انا مت فلا تخلصون من الظلم مع هذه الاعمال السيئة ، فان الله تعالى خلق امثالي كثيرا . واذ لم اكن انا ، كان من هو اكثر شرا مني » (ص ٦٢) .

ويبدو ان بعض قرائه اعجبوا بهذا الكتاب ، فاصطنعوا على غراره كتابا آخر بعنوان « سر العالمين وكشف ما في الدارين » (٢٠) . وكتاب سر العالمين ، يتداوله القراء حتى اليوم منسوبا الى الغزالي ، مع ان المرجح انه منحول. ومع ذلك فقد اصبح جزءا من تصور الجمهور عن الغزالي ، خصوصا هؤلاء الذين قرأوا له « التبر المسبوك » فادركوا ان الغزالي يتكلم عن الدنيا كلاما جميلا حين يخاطب الملوك . ولهذا السبب اورد المنتحلون على لسانه في كتاب « سر العالمين » هذه الكلمات :

« سألني جماعة من ملوك الارض ان اضع لهم كتابا معدوم المثل لنيل مقاصدهم » (ص ٢٠) .

ثم ملأوا الكتاب بعد ذلك بالحديث المفصل عن انواع المأكولات واللحوم والحلوى والهريسة والطظماج ، والوصفات الغريبة ، وطريقة مشاهدة الجان ومصادقتهم واستخدامهم . ولا يخلو الكتاب ايضا ـ على طريقة الغزالي ـ من احاديث مصنوعة ، منها هذا الحديث الغريب:

« قال صلى الله عليه وسلم : شكوت الى اخي جبرائيل ضعف الوقاع (أي مع الزوجات) ، فامرني بأكل الهريسة ، فوجدت لامري جبرا » (ص ٧٤) .

هل من الغريب اذن ان يعترف الغزالي نفسه ، بأن الكثيرين من رجال الدين المعاصرين له ، نهوا الناس عن قراءة بعض كتبه ؟

ليس هذا غريبا .

لكن الغريب ان يظهر اليوم بعد تسعمائة عام من يدعو الى غير ذلك.

قال الغزالي في تقديمه لكتاب « الاملاء » يشتم رجال الدين المعاصرين له لهجومهم على كتاب « احياء علوم الدين » :

« شركاء الطغام وامثال الانعام وسفهاء الاحلام وعار اهل الاسلام ، طعنوا عليه ونهوا عن قراءته ، وافتوا باطراحه ونبذه ، ونسبوا كاتبه الى ضلال واضلال ، ونبذوا (أي اتهموا) قراءه بزيغ في الشريعة واختلال » .

٣ ـ السحر والخرافة :

رأينا ان الغزالي يعد طلب العلم انصرافا الى الدنيا وانشغالا عن الآخرة ، فالعلم الصحيح لا يشمل العلوم العقلية ، ولا حتى علوم الحديث واصول الدين . لهذا قال فيما يسميه « بداية الهداية » :

« اعلم ان نفسك المائلة الى طلب العلم ، هي النفس الامارة بالسوء ، قد انتهضت مطيعة الشيطان اللعين ليدليك بحبل غروره فيستدرجك بمكيدته الى غمرة الهلاك ، وقصده ان يروج عليك الشر في معرض الخير حتى يلحقك بالاخسرين . وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء وما ورد فيه من الاخبار والآثار » (ص ٥) .

ذلك أن الغزالي يرى أن العلم الوحيد الذي يمكن طلبه هو « علم الآخرة » او « علم طريق الآخرة » ، اي العلم الذي « يقلل من رغبتك

ملاحظة : تكرر على الصفحة ٥٢ ، خطأ ، أربعة أسطر في أسفل العمود الثاني ابتداء من السطر الذي يبدأ بكلمة الى الضلال وينتهي وانشغالا عن . ..

في الدنيا ويزيد من رغبتك في الآخرة » (ص ٣٢) .

لكن علم الآخرة هذا ليس علما بالمعنى المفهوم ، بل هو نوع من المشاهدة الصوفية التي تستنكر العلم . يتحدث الغزالي عن ذلك قائلا :

« فترتفع الحجب بينك وبين ربك ، وتنكشف لك انوار المعارف ، وتتفجر من قلبك ينابيع الحكم ، وتتضح لك اسرار الملك والملكوت ، ويتيسر لك من العلوم ما تستحقر به هذه العلوم المحدثة » (ص ٨٥).

وفي كتيب صغير بعنوان «الرسالة اللدنية» يبذل الغزالي جهده لاقناع القارىء بما يسميه « العلم الغيبي اللدني (اي من لدن الله) الذي يعتمد عليه خواص الصوفية » (٢١) .

ويحصل هذا العلم العجيب بدون دراسة او قراءة ، لكن عن طريق « التعليم الرباني » ! (ص ٢٧) .

يقول :

« النفس القدسية . يحصل فيها جميع العلوم وينتقش فيها جميع الصور من غير تعلم وتفكر » (ص ٢٦ ـ ٢٧) . ويقول : « العلم الحاصل عن الوحي يسمى علما نبويا ، والذي يحصل عن الالهام يسمى علما لدنيا (اي من لدن الله) » (ص ٢٨) . « والواصلون الى مرتبة العلم اللدني ، مستغنون عن كثرة التحصيل وتعب التعليم » . (ص ٣١) .

والشيء الخطير والمثير للدهشة ، أن الغزالي لا يكاد يرى فرقا كبيرا بين الانبياء والاولياء او بين المعجزات والكرامات . فليس يكفي عنده ان يقتصر المؤمن على تصديق اخبار المعجزات المنسوبة للانبياء ، بل يجب أن يعيش طول عمره يتوقع المعجزة في كل لحظة ولاسباب مجهولة وعلى ايدي الاولياء والمقربين من الاولياء وخدم الاولياء . بهذا يختنق العقل البشري ويفرق المؤمن في عالم خرافي لا ضابط له ولا رابط ، يرى في كل همسة فيه رسالة من الجن ، وفي كل حركة اشارة الى الغيب ، وفي كل حادث معجزة أو انذارا بمعجزة . فالمعجزات عنده مباحة . كل ما في الامر انه يطلق على المعجزات الخرافية التي ينسبها للمتصوفة اسم « الكرامات » .

يقول عن هذه الكرامات المزعومة في كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» ردا على اعتراضات المعتزلة :

« فان قيل : هل تجوزون الكرامات ؟ قلنا : اختلف الناس فيه . والحق ان ذلك جائز . فانه يرجع الى خرق الله تعالى للعادة بدعاء انسان او عند حاجته » (ص ٩٠) .

وفي « معارج القدس » ، يقتبس افكار ابن سينا الخرافية في فصل « اسرار الآيات » في الجزء الثالث من « الاشارات والتنبيهات »، فيزعم ان هناك « قوى نفسانية » قادرة على فعل الخوارق ، « اذا شاءت احدثت في مادة العالم ما تتصوره في نفسها ، فينبع ذلك ان تحدث سحب هاطلة ورياح وصواعق وزلازل ، وصياح مثير ، ويتبعه مياه وعيون جارية وما اشبه ذلك ـ بارادة هذا الانسان . والذي يقع له هذا الكمال في جبلة النفس (اي الغريزة) ثم يكون خيرا متحليا بالسيرة الفاضلة .. فهو ذو معجزة من الانبياء .. او كرامة من الاولياء .. ثم يكون شريرا ويستعمله في الشر ، فهو الساحر الخبيث » (٢٢).

وهكذا اصبحت المعجزات والخوارق سلعة قابلة للتداول عند الاولياء والسحرة واصحاب الدعوات والحاجات . بل الاخطر من ذلك انه لا يجد غضاضة في ان يتحدث عن هؤلاء في فصل بعنوان « بيان خواص النبوة » .

لمثل هذه الافكار عن مرتبة النبوة ، أمر صلاح الدين الايوبي بقتل شهاب الدين السهروردي . وافكار السهروردي في «الحكمة الاشراقية» لا تختلف كثيرا عن افكار الغزالي في «الرسالة اللدنية» او في «معارج القدس» .

لقد اقتبس الغزالي اوهام الفلاسفة الروحانيين (الفارابي وابن سينا) عن السحر والتنجيم وفعل الارواح ونفوس الافلاك . ثم انقلب بهذه الاوهام نفسها يحارب المنهج العقلي في الفلسفة . ومن ذلك انتهى الى اختراع «العلم الصوفي» وما يرتبط به من فنون السحر والخرافة ، مثل « علم الحروف » و « علم التعبير » ! ي تفسير الاحلام ، الخ. فقد صنف الغزالي كتابا خرافيا في تفسير الاحلام اسمه « التحبير في علم التعبير » . واخترع ما يسمى « الجدول المثلث » الذي اورده في كتاب « المنقذ من الضلال » ـ (ص ٤٤) . واقام بذلك علم الحروف الذي هو مجرد اسم جديد لفن السحر بالكلمات والتعاويذ . وهذا تحايل على الدين . فالاسلام يحرم السحر بشكل قاطع ـ ويجعل منه خطيئة كبرى . والغزالي اول امام معروف في تاريخ الاسلام يشرع السحر والطلسمات ، تحت اسماء اخرى مثل عجائب الخواص او علم الحروف . فاذا شهدت اليوم مشعوذا يخدع الناس بالتعاويذ والاحجبة ، فاعلم انه تلميذ من تلاميذ « حجة الاسلام » الذي اعتمد علم الحروف وزعم انه دليل النبوة وبرهان الالوهية .

وقد أقام الغزالي مذهبه على نقطة بدء تثير الدهشة ، حين تصدر من رجل دين مسلم ، هي انه ليس « للالهيات براهين قاطعة » وانه لا يمكن التدليل على النبوة بالمنطق العقلي (٢٣) . فمن الاهداف الاساسية في كتاب « تهافت الفلاسفة » اثبات استحالة البرهنة عقليا على وجود الله او على رسالة النبي ، وهي الفكرة التي دافع عنها كثيرا بعد ذلك، خصوصا في « المنقذ من الضلال » . وهذا هو السبب في ان بعض الملاحدة يتحمسون لتهافت الفلاسفة اكثر من المؤمنين !

فالغزالي كان مقتنعا بأن العقل ينتهي الى الالحاد أو الى التشكيك في الالوهية والنبوة . صحيح انه اقترح بديلا للعقل هو تحصيل الايمان بطريق القلب ، أي بالعيان الصوفي لا بالبرهان المنطقي . لكن ماذا اذا اقتنع قراؤه بجانب الانكار ، ثم رفضوا البديل الذي يقترحه ؟ وماذا يبقى من دفاعه الصوفي عن الدين ، حين يتضح ان عجائب الخواص التي أقام عليها مذهبه ليست سوى أوهام غير علمية ؟

ان الغزالي بهذه الطريقة يلعب دور الدب الذي قتل صاحبه . فقد هدم البراهين العقلية للالوهية والنبوة ، ولم ينجح في ان يستخرج لها من التصوف دعائم راسخة .

ومع ذلك عاد يستخدم في كتبه المتأخرة نفس البراهين العقلية التي انكرها في « التهافت » . ففي كتاب « معارج القدس » حاول ان يثبت قضايا الالوهية والنبوة والروح ، مستخدما نفس البراهين الفلسفية التي رد عليها من قبل . فكتاب « معارج القدس في مدارج معرفة النفس » ، لا يكاد يختلف عن كتب الحكمة الالهية او الاشراقية التي كتبها فلاسفة الاسلام التقليديون ، اعني ابن سينا وغيره من ناقلي الافلاطونية الجديدة .

ولا يكفي لتفسير هذه الظاهرة ان نتحدث عن التناقض والتخبط في مذهب الغزالي ، كما يفعل كثيرون . بل الواقع ان دراستها، تكشف عن قواعد مذهب الغزالي ، وتكشف عن حقيقة موقفه من الفلسفة التقليدية . وهذه نقطة سنتعرض لها في الفصل الاخير .

فلننظر الآن كيف حاول ان يقدم السحر والتصوف بدلا من العقل.

يقول في « المنقذ » ، بعد ان قرر استحالة اثبات النبوة عقليا :

« الايمان بالنبوة (يجب) ان يقر باثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، يكون العقل معزولا عنها كعزل السمع عن ادراك الالوان والبصر عن ادراك الاصوات ... فقد اثبت ها الى ضلال واضلال ، ونبذوا (اي اتهموا) قراءه بزيغ في الشريعة واختلال » .

٣ ـ السحر والخرافة :

رأينا ان الغزالي يعد طلب العلم انصرافا الى الدنيا وانشغالا عن هنا امورا تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حولها اصلا ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها . فان وزن دانق من الافيون سم قاتل ، لانه يجمد الدم في العروق لفرط برودته . وما يزعم علم الطبيعة انه يبرد ، انما يبرد بعنصري الماء والتراب . ومعلوم أن ارطالا من الماء والتراب لا يبلغ تبريدهما في الباطن الى هذا الحد » (ص ٤٣) .

ثم يقدم ما يعتبره دليلا آخر على النبوة ـ يضاف الى دليل

الافيون ـ هو دليل « الجدول الثالث » الذي يسمى ايضا : بطـدو احبدوح ، او بدوح ، او بدوخ ، والذي يرى البعض انه اسم مشتـق اصلا من الاسم الفلكي الخاص باحـدى الالهات الفارسيات وهـو « بيدخت » (٢٤) .

يقول الغزالي :

« الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليهـا الطلق بواسطة هذا الشكل (جدول الحروف والارقام) ، يكتب علـى خرقتين وتنظر اليهما الحامل بعينها وتشمهما تحت قدميها فيسرع الولد في الحال الى الخروج .. وقد اقروا (أي الفلاسفة) بامكان ذلـك واوردوه في كتاب عجائب الخواص » (ص ٤٤) .

الا ترى معي اذن ايها القارىء ، ان محاولة اثبات النبوة اعتمادا على تجربة الافيون والحروف السحرية ، هي محاولة غير ناجحة، تحمل من الضرر اكثر مما تحمل من الفائدة ؟

ثم قارن هذه الاوهام بكلمات القاضي عبد الجبار ، قاضي القضاة وشيخ المعتزلة قبل الغزالي بحوالي مائة عام :

« يجب الامتثال لما يدل عليه العقل » . « ان النظر لو لم يولد العلم ، لما عرفنا صحة الكتاب اصلا .. وقد يجوز ان الرسول كان لا ينظر (أي لا يفكر عقليا) في الشرعيات . اما العقليات ، فلو لم ينظر فيها لما علم ما يقتضي كونه رسولا . ولو لم يعلم ذلك ، لما علم صحة الوحي » (٢٥) .

ولا يكتفي كتاب « المنقذ » بنقل النبوة الى ما يسميه « الطـور وراء العقل المعزول عن العقل » ، بل انه يرى ايضا من ادلة المؤمـن على النبوة ان « يتذوق » طريق النبوة ، ويبـدأ طريق النبوة عنـده بالتصوف . وبذلك جعل اولياء الصوفية اقرانا للانبياء في ادراك عالم ما وراء العقل، كما جعلهم (فيما سبق ذكره) اقرانا لهم في المعجزات. فهو بعبارة اخرى يفتح الباب على مصراعيه في كل مكان وزمان امـام القوى « المعزولة عن العقل » ، بدلا من ان يوسع القوى العقلية لتشمل النبوة كما فعل المعتزلة ، او على الاقل ، ان يحصر اللاعقل في اطـار النبوة فقط .

يقول عن اولياء الصوفية في « المنقذ » :

« ان جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة . فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة الا الاسم . فكرامات الاولياء هي على التحقيق بدايـات الانبياء . وكان ذلك اول حال رسول الله حين اقبل على جبل حراء » (ص ٣٠ ـ ٣١) .

ويقول :

« فمن ذلك الطريق فاطلب اليقين بالنبوة » (ص ٣٦) . « فيجب تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل» (ص ٣٧) .

وفي « الرسالة اللدنية » يقول :

« العلم علم الانبياء والاولياء » (ص ٢٩) .

وفي كتاب « معارج القدس » يقول ان وحي الانبياء والهام الاولياء يتفقان في « زوال الحجاب » ولا يختلفان الا في شيء واحد ، هـو « مشاهدة الملك المفيد للعلم » ! (ص ١٦٢) ومعنى هذا الكلام بالعبارات الدينية ان جبريل يخاطب الاولياء كما يخاطب الانبياء بفارق واحـد فقط : هو ان الانبياء يشاهدون صورته ، بينما الاولياء يسمعونه ولا يشاهدونه !

وواضح تماما ان هذا الراي يقترب من ادعاء النبوة . وهو علـى الارجح واحد من اسباب التقديس الشاذ الذي حظي به الغزالي في العصور المتخلفة . لكنه لو كان قد نظم مع السهروردي في عهد صلاح الدين الايوبي ، لكان قد امر بقتله كما فعل بصاحبه .

ومن ناحية اخرى ، فهذا الراي بالغ الخطورة ، من حيث انـه يصدر عن امام معروف مسموع الكلمة ، يعلن احكامه باسـم الشرع . وعندما يقول الغزالي ان « ما وراء العقل » مكشوف للمتصوفة ، فانه يصبح بذلك مشاعا مستباحا لكل من يلبس الخرقة المزقة او يسعـى الى الخلوات المظلمة . واستنادا الى هذه الفكرة المنحرفة المعارضـة لجوهر الاسلام ، تمتع آلاف المجاذيب والادعياء بمظاهر التقديس الوثني طوال العصور المتخلفة . وان الغزالي ليتحمل المسئولية الكبرى عـن هذا الانحراف، الذي اغرق البسطاء في الاعيب الشعوذة مئات السنين، وجعل من الايمان الديني تجارة يرتزق بها المجاذيب وخـدم الاولياء وصانعي التعاويذ .

صحيح ان هذه الفكرة كانت منتشرة قبل الغزالي ، بتأثير المتصوفة المجوس المشعوذين من أمثال الحلاج، لكن الغزالي أعطاهم تدعيم الشرع ، واعتمدها باسم الدين .

وفي العدد القادم ، نناقش افكار الغزالي فـي قتـل اصحاب الاسئلة ، وفي العدل الالهي ، وموقفه من الفلسفة .

ـ البقية في العدد القادم ـ

باريس — **اسماعيل المهدوي**

---

(١) الاخلاق عند الغزالي للدكتور زكي مبارك ، الطبعة الاولى ، ص ٨٢ .

(٢) الكتاب السابق ص ٨٥ .

(٣) ص ٨٤ .

(٤) تفاصيل هذا العصر التاريخي الغامض يمكن الاطلاع عليها في كتاب « العبر » لابن خلدون ، ج ٥ ، وفي دائرة المعارف الاسلامية ، في الدراسات الواردة تحت كل اسم مـن الاسماء التي سيرد ذكرهـا وخصوصا : نظام الملك ، وفخر الملك ، والمستظهر بالله ، وبركياروق ، وملكشاه .

(٤م) تاريخ الحضارة الاسلامية ـ تأليف بارتولد ـ الترجمـة العربية ـ الطبعة الرابعة ـ دار المعارف ـ ص ١١٧ .

(٥) المنقذ من الضلال ، مطبعة الجمالية ، الطبعة الاولى ص ٢٨ .

(٦) لاحظ انه يصف اوامر المستظهر ـ الشاب الصغير ذي الستة عشر عاما والعوبة السلاجقة ـ بأنها اوامر « مقدسة نبوية » !

(٧) تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ص ٢ ـ ٣ .

(٨) كتاب « بداية الهداية » ، طبعة الحلبي على هامش كتـاب « مراقي العبودية » ص ٣٦ .

(٩) الاحياء ، المطبعة الازهرية ، الطبعة الاولى ، المجلد الثالث ، ص ١٧٥ .

(١٠) الاحياء ، المجلد ٣ ص ١٧٦ ، وكلمة « ابن » هي فعل امر من « يبني » ، و « لد » هي فعل امر من « يلد » . ويلاحظ ان الغزالي كالمعتاد لا يذكر من اين جاء بهذه الرواية الغريبة .

(١١) كتاب الاخلاق لزكي مبارك ، ص ٦٨ .

(١٢) Gazali, Paris, 1902, P. 36.

(١٣) مطبعة بولاق ، الطبعة الاولى ، ص ٨٠ .

(١٤) الاخلاق ، ص ٨٠ .

(١٥) الاخلاق ، ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

(١٦) الاقتصاد في الاعتقاد ، طبعة الحلبي ص ١٠٢ .

(١٧) الاخلاق ، ص ٩٨ .

(١٨) نفس الكتاب ، ص ١٤٣ .

(١٩) الطبعة الاولى ، ص ٦٤ ـ ٦٥ .

(٢٠) نستطيع ان نجد هذا الكتاب في المكتبات العامة ضمن مؤلفات الغزالي ، مثلا في القاعة الشرقية بمكتبة جامعة القاهرة .

(٢١) الرسالة اللدنية ، طبعة الكردي ص ٢ .

(٢٢) معارج القدس في مدارج معرفة النفس ، طبعة الكردي ، ص ١٦٥ .

(٢٣) « تهافت الفلاسفة » ، تحقيق سليمان دنيا ، ص ١٥٧ .

(٢٤) انظر دائرة المعارف الاسلامية مادة Buduh . وهـذه المادة محذوفة من الاجزاء التي ترجمت الى العربية .

(٢٥) النظر والمعارف ، ص ١٦٩ .